الحياة العلمية فى اكسفرد

ترسل الولايات المتحدة بعثات تعليمية عدة الى الجامعات الاوربية . وقد قرأنا فى احدى المجلات الامريكية وصفا شائقا لما يجنيه الطالب الامريكى من اكسفرد فآثرنا تلخيصه لقراء الصحيفة . ففى هذا العدد أتينا على وصف الحياة العلمية بتلك الجامعة الذائعة الصيت ، وسنأتى فى العدد القادم ، إن شاء الله ، على وصف الحياة الاجتماعية والرياضية فيها.

ماذا يجني الطالب الامريكى من اكسفرد ؟

ليس للاجابة على هذا السؤال كيفية واحدة، بل ان له من الأجوبة بقدر عدد الطلبة الذين يذهبون الى اكسفرد. فاذا اضطرنا العمل الصحفي الى إغفال الافراد ، والكتابة عن « الطالب الامريكي » بوجه عام ، كما لو كان كل الطلبة سواء ، متعادلين فى كفاياتهم ومتفقين فى تجاربهم ، فلعل القارئ لا ينسى أن مايجنيه الطالب من اكسفرد ، مثل مايجنيه من أكثر الفرص التي تعرض له ، يتناسب مع مايبذله من جانبه ، وأن العين انما ترى ماقد كسبت القدرة على رؤيته ، وأن الطالب لا يتعلم فى الغالب إلا الجواب على الاسئلة التى تشغل عقله . وهذا يصدق على اكسفرد أكثر مما يصدق على معظم الجامعات الأخرى . ففيها « خيرات الله الواسعة » من حيث الفرص التعليمية والتهذيبية . ولكن فيها أيضا تطلق للطالب الحرية بأوسع معانيها فى أن يأخذ مايشاء ويترك مايشاء على حسب اختياره. فلا يساق الى الطيبات سوقا ، بل يجب أن تكون فى نفسه الرغبة للأخذ، وأن يعرف ما الذى يشتهيه ، كما أنه يجب أن يمنعه أدبه من النهم .

وعند مايسأل المرء عما يعود به الطالب من اكسفرد ، فأول مايتبادر الى ذهنه هو «الدرجة» . (١) ولدرجات اكسفرد معني خاص، لماتستلزمه من الشروط العلمية القيمة . ولا تقيد دراسة الطالب الامريكي بقيد ما . فيستطيع إعداد نفسه لأى درجة شاء من « بكالوريوس في الآداب » الى « دكتور فى الفلسفة » . وأمامه مجال واسع للاختيار في العلوم ، كمافي الجامعات الامريكية سواء بسواء . وتدل درجة «بكالوريوس فى الآداب مع الشرف » من اكسفرد على تعليم أكثر تخصصا مما تدل عليه درجة « بكالوريوس » الامريكية . نعم ان الدراسة فى اكسفرد مقرونة بروح « الحرية » ، (٢) ولكن هذه الجامعة لاتحاول الوصول الي هذه «الحرية»

---

(١) «degree» وتطلق على شهادات الجامعات الانكليزية.

(٢) من أكبر الصعوبات التى يلاقيها المترجم فى الموضوعات العلمية عدم توافر المصطلحات الخاصة بالعلم فى اللغة العربية . فقد عرضت لنا فى هذا المقال مثلا لفظة «liberal education» ومشتقاتها، مثل «liberality» ، ويقصد بها التربية التهذيبية الواسعة التى لايراد بهاأعداد الطالب لمهنة خاصة . واذا سمع الانجليزى الملم بعلم التربية أمثال هذه المصطلحات اوردت الى ذهنه معنى محددا .أما فى العربية فلم يتفق على ألفاظ نعبر بها عن هذه المعانى المعينة وليس من المناسب ترجمتها بجمل طويلة . وقد ترجمنا كلمة «liberality» هنا بكلمة «الحرية» مع اعترافنا بأنها مبهمة لاتؤدى المعنى بوضوح. واستعملنا فى مواضع أخرى اسم « التربية التهذيبية الواسعة » على حسب المقام .

وفى البلاد الآن نهضة فى التأليف والترجمة يخشي أن تؤول الى الفوضي اذا لم يتفق على المصطلحات العربية الخاصة لكل علم .ولا يصح أن يترك هذا للافراد ،لان الفرد يندر أن تتوافر فيه جميع الشروط اللازمة للقيام بمثل هذا العمل ، ولانه اذا ألف أو ترجم عدة أفراد في موضوع واحد فكثيراً مايضعون مصطلحات مختلفة للمعنى الواحد ، ولا يخفى ما يجر اليه هذا من الارتباك . فالحاجة ماسة الى تأليف

كما نحاول نحن في أمريكا — بتعدد مواد الدراسة ، بل تعتمد على التوسع في دراسة مادة واحدة . وأما المعارف العامة التي يحصل عليها الطالب الامريكي بدراسة مقررات عدة متنوعة ، فان طالب اكسفرد يعتمد في تحصيلها على مطالعته العامة — وهي طريقة أقرب كثيرا الى الاقتصاد .

أما شروط النجاح في أى درجة من درجات أكسفرد فانها تظهر على الورق أقصر مدي ، وأقرب منالا من أمثالها بالجامعات الامريكية . ولكن ما ينقصه النظام المدرسي الانكليزي عن نظامنا في السعة يستعيض عنه بالاتقان . فهم شديدو التدقيق في مراعاة الشروط ، بل قد يتوسعون في تفسيرها عند التنفيذ . وطريقتهم في الامتحانات تجرد الاستظهار (الصم)

مجمع لغوى للقيام بهذا العمل الخطير : وأولى الهيئات بالاشراف عليه هى وزارة المعارف العمومية . نعم إنا نذكر أنها ألفت لجنة هذا الغرض منذ بضع سنوات ، ولكن طبيعة تأليفها جعلت فشلها محتما . فليس هذا عملا يحتاج فيه الي ذوى المقامات والالقاب ، بل الى ذوى المعرفة والنشاط .

ولضمان نجاح المجمع اللغوي فى اداء مهمته ، يجب :

(اولا) ان تسند رآسته الى رجل جمع بين الغيرة والهمة ، والقدرة الادارية والتنظيمية .

(ثانيا) أن تكون أكثرية أعضائه من الاخصائيين فى مختلف العلوم ، ويحسن ان يكون فيهم من درسوا هذه العلوم بلغات اجنبية مختلفة . والباقون يكونون من علماء اللغة ذوى الاطلاع الواسع والفكر الدقيق .

وبعد ان يتفق المجمع على المبادىء العامة التى يسير عليها في وضع المصطلحات ، ينقسم الى لجان فرعية تختص كل لجنة منها بعلم من العلوم .

هذا واجب لايحتمل التسويف . فلعله يلاقى من وزارة المعارف العناية التي يستحقها . اما اذا لم يكن هذا ، فانا نقترح على نقابة المعلمين ان تقوم به هى ، بالاشتراك مع « لجنة التاليف والترجمة والنشر » بقدر ما تسمح لهما به مواردهما . — المترجم

من كل فائدة ، وتقصر اعتماد الرجل على ما يعرفه حق المعرفة : ولادراك الفرق بين المستوى الانكليزي والمستوى الامريكي في الدراسة ، يجب أن تفحص أصناف الرجال الذين يحرزون أسمى الدرجات العلمية في المملكتين. ففي امريكا يستطيع الحصول على هذه الدرجات رجل ذو كفاية ممتازة يعني بعمله عناية متوسطة طول مدة سنوات دراسته الاربع ، أو رجل ذو كفاية متوسطة ولكنه يكد آناء الليل وأطراف النهار ، ولا يترك دقيقة من وقته دون الانتفاع بها . وربما لا يكون في الولايات المتحدة درجة علمية يبلغ ارتفاع مستواها حدا يتطلب من رجل من الصنف الاول أن ينسج في شغله على المنوال الثاني.

أما رأى الانجليز فى شهادة الشرف من الطبقة الاولي فهو أنها شهادة لا ينالها الا من جمع بين مقدرة من الطبقة الاولي ، وجد ومثابرة يمكنانه من بذل أقصى ما يستطيع بذله من المجهود ، والانتفاع بمقدرته الى أبعد حد مستطاع

ويجد الطالب الامريكى أكسفرد خالية من أكثر النظم المدرسية التي الفها في جامعات بلاده . فليس فيها «مقررات دراسية» بالمعني المفهوم من هذا اللفظ فى أمريكا ، وليس فيها «بطاقات للقيد» فى مكتب «السكرتير» ولا يطلب من الطالب أن يوقع باسمه أمام المحاضرات التى ينوي استماعها، ولا يكلف عددا معينا من الدروس يحضرها فى الاسبوع ، ولا يحدد له عمل اليوم فى كل علم ، ولا تتخلل الاختبارات الفصل الدراسي بالجامعة . وان الطالب الامريكي لتدركه الحيرة في صباح يوم الاثنين الاول له في أكسفرد وفي صباح أيام أخرى عدة بعد ذلك — فلا يعرف ما الذى ينتظر منه

أن يفعله في أية ساعة وفي أية لحظة .أيقرأهذا المجلد ؟أم يكب على استظهار تلك الجداول التاريخية ؟ أم يذهب لاستماع محاضرة من المحاضرات ؟ أم يجول فى شارع «هاي ستريت» ليبحث عن حانوت بائع التبغ ؟ أم يقضى بضع ساعات في احدى مكاتب أكسفرد الممتعة، فيزيد في ثروة مكتبته فى مقابل ماينقصه من ثقل كيس نقوده؟ ان في العالم الذى ينفتح أمامه مجالا للعمل وللهو، ولا لف وسيلة أخرى بين الاثنين يستطيع أن يشغل بها وقته وهو حر في اختياره . والقيد المدرسي الوحيد الذى لا يستطيع أن يتملص منه هو أن يزور (أستاذه الخاص [1]) مرة فى الاسبوع، فى ميعاد معين، ليقرأ عليه مقالة يكون قد كتبها فى موضوع عينه له . وعنده قائمة بالمحاضرات ، فهو يحضرها اذا راقت فى نظره ، والا فلا جناح عليه . وقد يدهشه أن يجد « أستاذه الخاص » يقرر بصراحة أنه لا يؤمن بفائدة الاكثار من سماع المحاضرات بل كثيرا مايتعدى هذا الشك « الاستاذ الخاص » الى المحاضر نفسه. وقد سمعت « سير ولتر رالى » أكثر من مرة ينبه سامعيه ، عند مايبدأ فصل محاضراته ، الى أنهم لن يجدوا فيها فى الغالب شيئا ينفعهم من الوجهة الامتحانية . ولا يحفظ المحاضر قائمة بأسماء طلبة فرقته . وقد اعتاد الطلبة أن يستمعوا لمحاضرات في علوم عدة فى أول الفصل الدراسي كنموذج (عينة) ، على ألا يواصلوا الاستماع الا فيما يرون فيه فائدة لهم . وهذا السبيل هو الذي ينصح لهم « أساتذتهم الخصوصيون » عادة بانتهاجه . ويكون من نتائجه أن سلاسل المحاضرات تبدأ فى اكسفرد بعدد وافر من المستمعين ، ولكنه لا يلبث أن يتناقص ، فلا يبقى منه فى آخر الفصل

(١) وهو الاستاذ الذى يتعهد الطالب ويراقب عمله فى غير اوقات المحاضرات

الدراسي الا القليلون الغيورون .

إن الانسان ليأخذه العجب من بساطة النظام المدرسي فى اكسفرد — إذا صح أن نطلق عليه هذا الاسم — فالطريقة المتبعة تقضي بألا يحدد للطالب ما ينبغي أن « يأخذه » من الدروس ، بل ماينبغي أن يعرفه فى النهاية، وأن يترك له وقت معين لتحصيل تلك المعارف ، ثم يمتحن فيها ليعرف أحصلها حقيقة أم لا . على أن لفظة « التحصيل » لاتتفق مع حقيقة ماتتطلبه اكسفرد من الانسان . لان نظرية هذه الجامعة عن التربية الحرة الواسعة هي أنها ترمي الى تنمية قوة التفكير ، والاحاطة بدائرة محدودة من العلوم ، أكثر مما ترمي الى تكديس المعلومات فى العقل ولو أن هذا بالطبع لازم للغرض الأول . فالطالب الامريكى يدرس «مقررات» ، وأما طالب اكسفرد فانه يتفقه في علم .

وليس نظام « الاساتذة الخصوصيين » في التعليم إلا نتيجة طبيعية للشكل الذى اتخذته مطالب اكسفرد الدراسية . وهذا يعلل مانشاهده من أن محاولة إدخال هذه الطريقة على نظام التعليم الشائع فيأمريكا ، وهو نظام « المقررات » ، لاتؤدي الى نفس النتائج التي يوصل اليها النظام الانكليزى . فجوهر هذا النظام هو النظر فى عمل الطالب الي ماينبغي أن يعرفه فى النهاية ، لا إلي الاسلوب الذى يصل به الى هذه المعرفة . ففي اكسفرد يقتصر في تحديد عمل الطالب في قانون الجامعة على ذكر الامتحانات التى يجب أن يجتازها للحصول على « الدرجة » ، ويترك حرا في اعداد نفسه لهذه الامتحانات بمجهوده الشخصي ، تحت مراقبة «أستاذه الخاص » . ويقف الاستاذ من الطالب موقف المرشد والصديق

والفيلسوف . فيعين تلميذه بكل مايستطيعه من وسائل النصح والنقد على أن ينتفع لاقصي حد ممكن من مواهبه ، ومن الفرص التعليمية التى تقدمها له الجامعة والكليات . ولكنه لا يعد نفسه مطالباً بأن «يسقيه العلم بالملعقة» فنجاح الطالب يتوقف قبل كل شيء علي جده واجتهاده ، وعلى القوة الداخلية التى تدفعه الى الشغل . ومن أهون الامور عليه أن يضيع ثمين وقته في رياضة نفسه علي العمل ، فتكون النتيجة وبالا عليه . أما اذا توافرت لديه القدرة على ترتيب عمله بنفسه ، والهمة والقوة الدافعة الكافيتين لحمله علي الشغل دون مراقبة خارجية مستمرة ، ففي استطاعته أن يبلغ أبعد شأو ، وأن يقظع السبيل اليه بأسرع مايود لنفسه . وقد تكون هذه القدرة علي العمل المستقل أهم ثمرات نظام التعليم في أكسفرد .

ولا يقتصر غنم الطالب الامريكي من أكسفرد علي تبدل وجهة نظره الى عمله ، بل انه يتولد فى نفسه فوق ذلك احترام جديد للامتحانات . ففي امريكا لا ينظر الى الامتحانات فى العادة بعين الارتياح ، فقد تفشي الاعتقاد هذه الايام بأنها غير جديرة بأن يركن اليها فى قياس القوة الفكرية . وربما لا تخلو انكلترا من أناس يعتقدون أن الامتحانات تلقي فى بلادهم فوق ما تستحقه من العناية ، ويركن الى نتائجها أكثر من اللازم . ولكن مهما يكن الامر . فان الانكليز قد أتقنوا فن الامتحان ، وأوصلوه الي درجة كبيرة من الدقة . يدلك على هذا أن نتائج امتحانات أكسفرد تصدق اذا اتخذت أساسا للتنبؤ بحظ الطالب في مستقبل حياته . وإنا نسلم بأن الكتاب الهزليين قد يبالغون في وصف التباين بين درجة نجاح الطالب فى كليته وبين درجة نجاحه في مستقبل حياته في أمريكا ولكن لا شك فى أن تناسب

النجاح في الحالتين ليس مطردا عندنا كما هو فى انكلترا . وامتحانات أكسفرد أصعب من امتحاناتنا . ولكنها أقل منها تفيهقا . ويفضل الانكليز أن يكون ممتحنو الطالب غير الاساتذة المسئولين عن تعليمه . وان تأتى الامتحانات عقب شغل سنة أو سنتين ، بدل أن تتكرر فصلا بعد فصل ، أو أسبوعا بعد أسبوع . ويغلب أن تكون امتحاناتهم من النوع الذى تطلب فيه كتابة « مقالات »(١) . وترمى الى اختبار قدرة الطالب على البحث في الموضوع ، لا علي مجرد تذكر تفصيلات معينة . ويتكون امتحان «درجة الشرف » عادة من سبع أوراق الى اثنتي عشرة ورقة ، زمن الاجابة عن كل منها ثلاث ساعات . وتعطى للطالب تباعا اثنتين كل يوم ، فتستغرق نحو أسبوع . ومن الجلي أن الاستظهار (الصم) لمثل هذه السلسلة من الاختبارات غير متيسر . ويشير الاساتذة علي طلبتهم في العادة أن يرحلوا عن أكسفرد قبل الامتحان ببضعة أيام . وينسوا كل ماله ارتباط بالكتب فى هذه الفترة ويقضوا أوقاتهم في لعب « التنس » أو « الجلف » . واذا ماوصل الطالب الى غرفة الامتحان ، ووجد أمامه ورقة تحتوي على عشرة أسئلة أو اثنى عشر سؤالا ، فانه يصرف الساعتين الأوليين من وقته في الاجابة على السؤالين اللذين يعرف عنهما أكثر من غيرهما ، فيجيب عليهما بأقصى مايستطيع من الامعان والافاضة . وفي الساعة الباقية بعد ذلك يجيب على سؤالين آخرين أو ثلاثة ، بايجاز ولكن مع اتقان الاجابة جهده .

ويبني الانجليز تقدير الدرجات على النوع لاعلى الكمية . فيراعي في تقدير درجة الطالب درجة اجادته لما كتبه ، لا مقدار ما تركه . وبعد أن

---

(١) «The Essay Type»

تقرأ أوراقه جميعها يحضر أمام الممتحنين لتأدية الامتحان الشفوى . فتسنح لهم بذلك فرصة كافية لمناقشته في الموضوعات التى لم يذكرها في اجابته أما في الامتحان التحريرى. فيجب أن يرمي الطالب الى جعل اجابته على بعض الموضوعات من الطبقة الاولى . ولا يقصد بهذا النوع في انجلترا مجرد اجابة تحتوى على المعلومات مهما غزرت ، بل يجب أن تنم فوق ذلك عن سلامة التفكير ، واجادة الترتيب .

ويسهل علينا أن نرى مما سلف أن أهم ما يكسبه الطالب الامريكي من اكسفرد دافع قوي يحمله على اعادة النظر في جميع آرائه عن نظريات التربيـة وطرقها العملية . فانه يذهب الي معهد يداخل أهله الشك في كثير من الآراء التى يقبلها الامريكيون كقضية مسلم بها ، بل قد ترفض هذه الاراء فيه بتاتا . كما أنه يجد الانكليز يسلمون بأمور عدة مما ألف هو اعتباره خطراً أو باطلا . وقد يعود الطالب الى امريكا دون أن يعتري عقيدته الفكرية أقل تغيير . ولكنه على كل حال لابد أن يكون قد أمعن في البحث والتفكير في الاساس الذى بنى عليه معتقداته في التربية والتعليم . وهذه عملية جليلة القيمة مهما كانت نتيجتها

اسماعيل محمود القباني